الفصل السابع

البركة الجعفرية

١ ـ البركة الجعفرية والبحتري

بحثنا في الفصل المتقدم عن قصر الحير ، الذي في المشرحات ، ونبحث في هذا الفصل عن البركة التي أمام القصر ، وهي البركة التي كان نهر نيزك ينتهي عندها والتي دلتنا تتبعاتنا على انها البركة الجعفرية التي وصفها البحتري في قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها (يا من رأى البركة الحسناء) . ويحسن بنا قبل ان نبحث عن الآثار الحالية لهذه البركة ان ننقل بعض الابيات من قصيدة البحتري التي يصفها بها لنكوّن فكرة عن البركة كما صورها لنا البحتري في شعره . وقد يرى البعض ان استنادنا الى هذه الاوصاف الشعرية مما يبعدنا عن الروح العلمية الفنية التي يتطلبها مثل هذا البحث الخطير ، نظراً لما تتخلله أوصاف الشعراء عادة من مبالغات وخيالات يكون معظمها من مخيلاتهم ، وردّنا على هذا أن افتقار المصادر لهذا الموضوع لا يمنعنا من الاستعانة ببعض ما جاء خلال هذه الاوصاف الخيالية من أمور واقعية ملموسة كوجود الحدائق والبساتين حول البركة مثلا وكوجود نهر باسم « نهر نيزك » يتوسط تلك الحدائق وينتهي الى البركة ، ثم وجود الدكات في البركة والصحن في اسفلها والبهو في أعاليها ، وكذلك وجود الدواليب على البركة ، وهي الدواليب التي كان يديرها النعام ، وغير ذلك من الاوصاف التي تعد حقائق ملموسة قد يبني عليها الشاعر تصوراته ومخيلاته . ولا تختلف بنظرنا هذه المعلومات التي يزودنا اياها الشعراء في قصائدهم بذكرهم اسماء القصور والمواقع المهمة ووصفها وصفاً شعرياً عن الآثار المتبقية من تلك الأماكن وهي الآثار التي نسترشد بها لمعرفة الشيء الكثير عنها .

٢ قصيدة البحتري في البركة

وتعدّ قصيدة البحتري في صفة البركة الجعفرية من أشهر وأبلغ المنظوم في تاريخ الأدب العربي حتى قيل انه سمع عبد الله بن المعتز يقول : « لو لم يكن للبحتري من الشعر إلا قصيدته السينية في وصف إيوان كسرى وقصيدته في وصف البركة لكان أشعر الناس في زمانه[1] » .

ولندوّن الآن الابيات التي تتصل ببحثنا هذا تحت ارقام متسلسلة لكي نشير الى كل منها بحسب ارقامها، على أن نوضح بعد ذلك كيف ينطبق ما جاء فيها من أوصاف على آثار البركة الحالية . وفيما يلي ما أنشده البحتري في صفة البركة قال : —

١ — يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها ... والآنسات اذا لاحت مغانيها

٢ — يحسبها انها في فضل رتبتها ... تعدّ واحدة والبحر ثانيها

٣ — ما بال دجلة كالغيرى تنافسها ... في الحسن طوراً وأطواراً تباهيها

٤ — أما رأت كالئ الاسلام يكلأها ... من ان تعاب وباني المجد يبنيها

٥ — كأن جن سليمان الذين ولوا ... ابداعها فادقوا في معانيها

٦ — فلو تمرّ بها بلقيس عن عرض ... قالت هي الصرح تمثيلاً وتشبيها

٧ — تنصبّ فيها وفود الماء معجلة ... كالخيل خارجة من حبل مجريها

٨ — كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجري في مجاريها

٩ — إذا علتها الصبا أبدت لها حُبُكا ... مثل الجواشن مصقولاً حواشيها

١٠ — فحاجب الشمس احيانا يضاحكها ... ورَيق الغيث أحياناً يباكيها

١١ — إذا النجوم تراءت في جوانبها ... ليلاً حسبت سماء ركّبت فيها

١٢ — لا يبلغ السّمك المحصور غايتها ... لبعد ما بين قاصيها ودانيها

١٣ — يعمن فيها بأوساط مجنّحة ... كالطير تنقضّ في جو خوافيها

---

(١) « مقدمة تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي (الطبعة الفرنسية ١٩٠٤) ص ٩١

١٤ـ لهنّ صحن رحيب في اسافلها إذا انحططن وهو في أعاليها

١٥ـ صور الى صورة الدآمين يؤنسها منه انزواء بعينيه يوازيها

١٦ـ تغنى بساتينها القصوى برؤيتها عن السحائب منحلا عزاليها

١٧ـ كأنها حين لجت في تدفقها يد الخليفة لمّا سال واديها

١٨ـ وزادها رتبة من بعد رتبتها ان اسمه يوم يدعى من اساميها

١٩ـ محفوفة برياض لا تزال ترى ريش الطواويس تحكيه وتحكيها

٢٠ـ ودكتين كمثل الشعرتين غدت احداهما بازاء الأخرى تساميها

٢١ـ إذا مساعي أمير المؤمنين بدت للواصفين فلا وصف يدانيها

وقد وصف ابنا البحتري أيضاً في مكان آخر من قصائده الدواليب التي كانت على البركة فيديرها النعام ، فقال وهو يشير الى الجدول الذي ينتهي عند البركة :

٢٢ـ وإذا ما توسّط البركة الحسناء ألقت عليه صبغ الرخام

٢٣ـ فتراه كأنه ماء بحر يخدع العين وهو ماء غمام

٢٤ـ والدواليب ان يدرن ولا ناضح يمشي بهنّ غير النعام

٢٥ـ بدع انشئت لأولى عباد الله بالرّكن والصفا والمقام

وقد تطرق البحتري الى دكتي البركة والقصر الذي خلفها في قصيدة اخرى يمدح بها المتوكل ، قال :

وأرى الدكتين بينهما أطراف روض كالوشي في الوانه
في ضروب من حسن نرجسه الغض ومن آسه ومن زعفرانه
ذاك قصر مبارك تقصر الاعين دون الرفيع من بنيانه[1]
فيه نال الامام تكرمة الله وفضل العطاء من احسانه
نسأل الله ان يتم فينا حسنّ أيامه وطيب زمانه

---

(١) لا شك في ان القصر المذكور هو القصر الذي يقع أمام البركة .

٣ ـ خلاصة وصف البحتري

نستخلص من ذلك كله الحقائق الملموسة التالية :ـ

١ ـ ان البركة كانت تسمى « البركة الجعفرية » نسبة الى منشئها جعفر المتوكل (البيت رقم ١٨) وقد اطلق البحتري عليها اسم « البركة الحسناء » (البيتان رقم ١ ورقم ٢٢) .

٢ ـ ان البركة كانت على مسافة قريبة من دجلة ، وكانت محفوفة ببساتين ورياض تتناجى فيها الطواويس على اغصان الاشجار التي كانت في الحديقة (البيتان رقم ٣ ورقم ١٩) .

٣ ـ كان للبركة حوض واسع (صحن رحيب) في أسفلها وكان يطل على هذا الحوض بهو مرتفع (البيت رقم ١٤)

٤ ـ ان تمثالا للدلفين (دابة بحرية) كان منصوباً على أحد جوانبها والارجح انه كان أمام الصحن (البيت رقم ١٥).

٥ ـ كانت في البركة دكتان محاطتان بالاشجار تقع الواحدة إزاء الاخرى كما كان هناك مغان (مقصورات) تطل على البركة (البيتان رقم ١ ورقم ٢٠) .

٦ ـ كان على البركة دواليب تديرها النعام (البيتان رقم ٢٤ ورقم ٢٥) .

٧ ـ كان في البركة أسماك (الارجح انها اسماك زينة ملوّنة) (الأبيات المرقمة ١٢ و ١٣ و ١٤) .

٨ ـ كان هناك نهر يسمى « نهر نيزك » يدخل البركة من وسطها فيغذيها بالمياه، والمياه كانت تجري فيها بسرعة متناهية كالخيل التي في حلبة السباق (الأبيات المتقدمة في الفصل السابق حول وصف حديقة الحيوانات والبيتان رقم ٢٢ و ٧ من الأبيات اعلاه) ، وكذلك يدل على انه كان مخرج المياه يساعد على احداث هذا الجريان السريع واستمراره .

٩ ـ كان هناك قصر ملكي يطل على البركة .

٤ ـ بقايا البركة

واذا تتبعنا تفاصيل تصميم البركة من آثارها المتبقية ، نجد انها تتكوّن من منخفض اصطناعي مربع الشكل ، يبلغ طول كل من اضلاعه زهاء مائتي متر ، وعمقه عن مستوى الأرض المجاورة ثلاثة أمتار على وجه التقريب . ويحد المنخفض من الغرب والشرق تلال اصطناعيان مرتفعان يمتدان على طول الضلعين الجانبيتين بعرض يتراوح من ٣ الى ٥ امتار ، والظاهر ان أتربة هذين التلّين حملت من حفريات البركة فتألف منها كتفان عاليان للمنخفض مما زاد في جمال منظر البركة وتنسيقها . ويحد المنخفض من الجنوب القصر الذي تقدم وصفه في الفصل السادس ، أما من جهة الشمال فيتوسطه نهر نيزك الذي ينحدر من الشمال وينتهي عنده بعد ان يخترق حديقة الحيوانات من وسطها (راجع الرسمين رقم ١٣ ورقم ١٤) . وفي داخل البركة تقسيمات تتكوّن من أحواض متناسقة تمتد على عرض البركة بصورة متوازية كانت على ضفافها الاشجار المظلّلة . كما نجد في داخل البركة أيضاً دكات للجلوس تمتد على عرض البركة من الجانبين (الجانب الغربي والجانب الشرقي)، عددها في الجانب الشرقي أربع وفي الجانب الغربي ست ، وأخيراً الصحن الواسع في أسفل البركة الى الجنوب . ويشاهد في مدخل البركة من جهة الشمال نهر نيزك يتوسط البركة فيجري في وسطها والاحواض تتفرع من جانبيه حتى تنتهي الى الصحن الاسفل ، كما تشاهد الدكتان المتقابلتان اللتان ذكرهما البحتري فيبلغ عرضهما ٣٥ متراً وطول كل منهما تسعين متراً . ويشاهد أيضاً الصحن الواسع الذي في أسفل البركة، وهو الصحن الذي أشار اليه البحتري ، متكوّناً من حفرة عميقة يبلغ عرضها ٧٥ متراً وطولها مئة متر تقريباً ، كما يشاهد البهو الذي ذكره البحتري في أعالي الصحن من الجنوب، وهو يقع أمام القصر بين البركة والقصر ، ويبلغ عرضه خمسين متراً وطوله ١٢٥ متراً على وجه التقريب ، وهنالك أيضاً آثار المقصورات التي نوّه عنها

البحتري ، وهي تقع على الحد الشمالي للبهو فتشرف على الصحن الاسفل للبركة .
ومن المهم ان نشير أخيراً الى التنظيمات الخاصة بصرف المياه من البركة ، وهي التنظيمات التي كانت تحقق جريان المياه بالسرعة التي نوّه عنها البحتري ، لأن مسيل المياه بمثل هذه السرعة لا يمكن ان يتم إلا اذا توفّر مخرج ذو انحدار كبير يصرف مياه البركة الى محل منخفض خارج حدود البركة . وهذه التنظيمات، كما نشاهد آثارها المتبقية ، تتكوّن من كهريزين يخرجان من قعر البركة من حدها الجنوبي فيسير أحدهما بموازاة الجانب الغربي لساحة التل جنوبي القصر (راجع البحث الذي تقدم عن هذه الساحة في ص٢٩٧و٢٩٩)مخترقاً قطيعة رجال حاشية القصر في تلك الجهة ثم ينصب في الضفة اليسرى من نهر القائم ، ويسير الثاني بموازاة الجانب الشرقي لساحة التل مخترقاً القطيعة التي في ذلك الجانب ثم ينصب في نهر القائم أيضاً (راجع الرسم رقم ١٤) . ويمكن تتبع المجرى الذي تحت الارض في الكهريز الاول لمسافة مائة متر تقريباً وذلك من جهة مصبه في نهر القائم حيث جرفت السيول بعض الأتربة من فوقه فانكشف معظمه في ذلك القسم وأخذت مياه السيول نفسها تجري فيه فتنصب في نهر القائم .

٥ ـ الفن الهندسي في تنسيق البركة

واذا تمعّن المرء في تقسيمات هذه البركة وتنسيقها ، وتصوّر في مخيلته موقعها الجميل في وسط تلك الحدائق الغنّاء والمشتملات الاخرى، كالدواليب التي يديرها النعام ، والاسماك الملونة في وسط مياه البركة ، والدكات ذات الاشجار المظالة والطواويس تتماجى فوقها،والحديقة الواسعة ذات الاشجار المتشابكة بحيواناتها الوحشية على مختلف انواعها، بعضها سجين في الأقفاص والبعض الآخر حر طليق، ثم يتصور نهر نيزك وهو يتوسط هذه البقعة الجميلة المحاطة بسورها الطويل المحاطة السوار بالمعصم ، تجلت له عظمة الفن الهندسي وانكشفت أمامه قابليه

الانسان في تذليل الصعاب واتضح له ما يستطيع ان ينتجه المرء من اعمال الابداع والابتكار في تحقيق التمنيات .

٦ـ موقع البركة حسب رأي دائرة الآثار

وقبل ان ننهي بحثنا عن « البركة الجعفرية » نود أن نشير الى ان دائرة الآثار كانت قد ذكرت في نشرتها عن سامراء (ص ٥٥) ان البركة الجعفرية التي وصفها البحتري في شعره تقع في السهل المنبسط أمام دار الخليفة من جهة نهر دجلة فتبدأ من أسفل الدرج العريض الذي كان يصل القصر بالسهل ، ثم ذكرت أن طول ضلع البركة يبلغ نحو ١٢٥ متراً وانها كانت متصلة من منتصف ضلعها الغربي بساقية منتظمة تمتد على طول ٤٠٠ متر حتى تصل شاطيء دجلة القديم الخ. ولا شك في ان الايضاحات التي تقدم شرحها تكفي لان تبرهن على ان دائرة الآثار كانت بعيدة كل البعد عن تعيين موقع هذه البركة .

ويستفاد من المقال الذي نشرته دائرة الآثار مؤخراً في مجلة سومر تحت عنوان «مدينة المعتصم على القاطول[1]» انها تعترف على لسان مديرها العام بأن ما سبق لها أن نشرته في نشرة سامراء لا يتفق مع الواقع ، ولكنها بعد ان اعترفت بذلك وقعت في ارتباك آخر لم تكن فيه أوفر حظاً في الاصابة ، إذ زعمت ان البركة التي وصفها البحتري في قصيدته تقع في مدينة المتوكلية ، وان البركة التي في المشرحات من عمل المعتصم . ولما كان لمصدر مياه مدينة المتوكلية صلة مباشرة بالنهر الجعفري الذي ثبت لنا بأنه لم يجر الماء فيه في غير الشهرين شعبان ورمضان من سنة ٢٤٧ هـ . وقد كان ذلك في موسم الشتاء ، فلم يبق لدينا أدنى شك في ان البركة بعيدة عن منطقة المتوكلية وسيأتي البحث عن ذلك في الفصل

---

(١) راجع البحث الذي تقدم في صفحة ٢٥١ وصفحة ٢٦٨

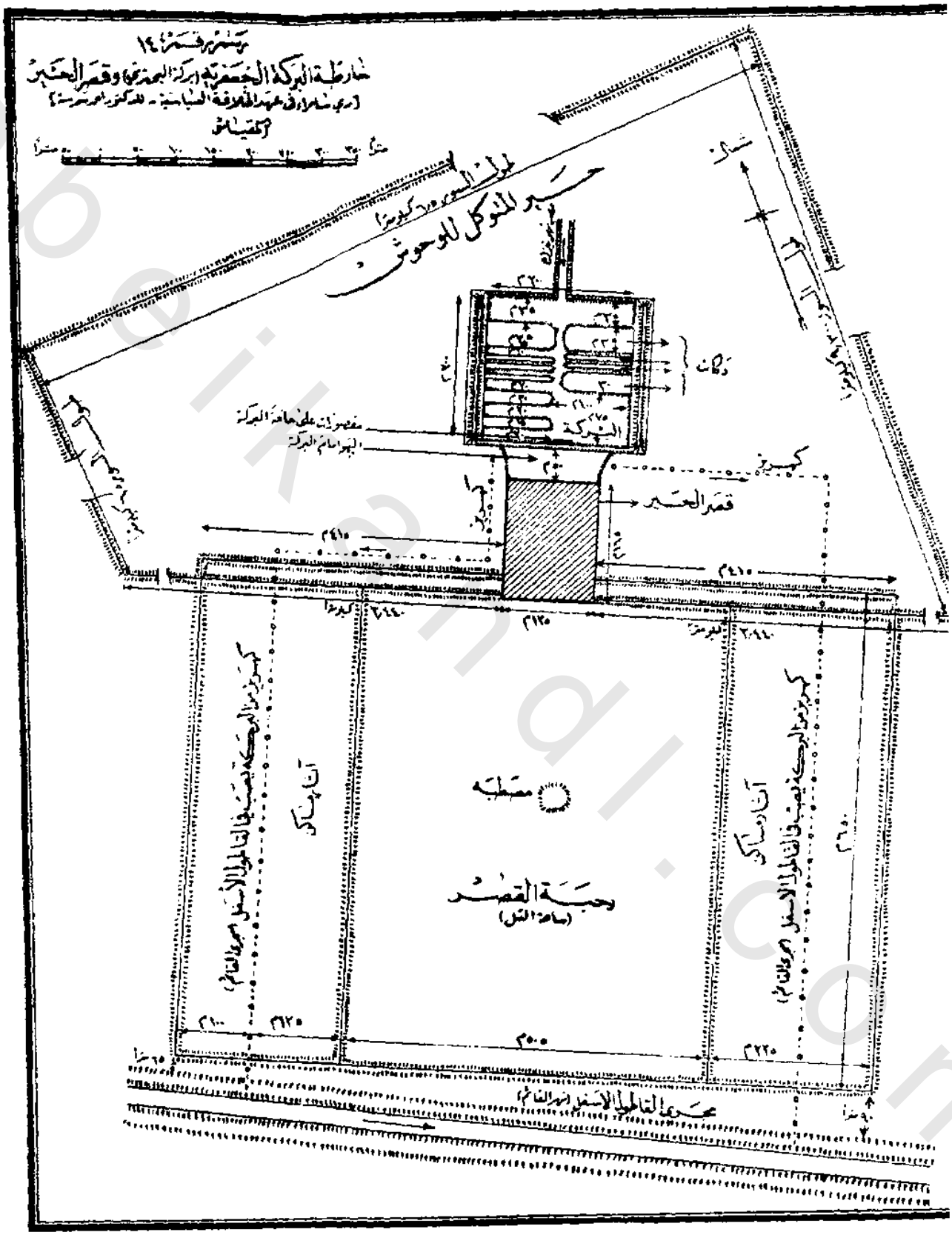
خارطة البركة الحجرية (بركة البحيرة) وقصر الحير
(مع شكر وتقدير لمعهد الدراسات الشرقية العباسية - للدكتور أحمد سوسة)
مقياس
حير المتوكل للوحوش
شمال
دكان
البركة
مقصورات على حافة البركة
الهوامش البركة
قصر الحير
كيلومتر
متر
قصر
حبة القصر
(ساحة التل)
آثار مساكن
مجرى الخاطول الأسفل (نهر العاشق)

الثامن ، الذي يتناول مشروع النهر الجعفري ، لذلك لا يسعنا إلا ان نعتصم بما توصلنا اليه من استنتاجات فيما يختص بموقع بركة البحتري وحير الحيوانات إلا اذا كشف لنا المستقبل مكاناً غيره تنطبق عليه أوصاف البحتري مثل ما انطبقت على مكان المشرحات السالف الذكر .

obeikandl.com